

باب العقائد

## بحث الكلام في الاختلاف (\*)

قد نوه الله سبحانه بالاختلاف في الدين وكرر ذلك في كتابه العزيز تكويراً كثيراً لعله سبحانه وتعالى بضروره في الدين وكم كثر ذلك في بني اسرائيل قائلاً « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بما بينهم » ونحوها فكانه يقول احذروكم مثل فطهم مدلين بالشبه وعدم تبين ذلك في دينكم فانكم ان فطتموه ففطتموه بعد قيام الحجة عليكم ولا يحملكم عليه الا النبي لا التدين وان من اراد الله واتبع رضوانه فانه يهديه سبل السلام ويخرجه من الظلمات الى النور فصدق الله تعالى ما وجدنا اختلاف الا في محل قد تبين الحق فيه ، وادلى الخالف للحق بشي لا ينبغي الاستناد اليه ، فهو انما جعله صورة والحامل الحقيقي النبي لنيل حظ دنيوي وقد يكون البلاء من النظر في شيء النظر فيه تكاف ما لا ينبغي وقد تم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنهى عن مظان الخلاف وحذر منها كالجدل في القدر وقال الله تعالى « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « اتركوني ما تركتكم » وكل الله سبحانه على لسان نبيه صلى الله عليه وآله وسلم فلم يبق شيء يقربنا الى الجنة الا بينه لنا ولا شيء يقربنا الى النار الا بينه

(\*) منقولة عن كتاب العلم الشايع في ايشار الحق على الاباء والشايع لاحد مجتهدى القرن الحادى الذي يطعم عطية النار

وما عفا الله تعالى عنه وسكت عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلا يريد الله سبحانه أن نبحث عنه بمجرد عقولنا القاصرة فأنا جملت الدنيا في قدر محدود في علم الله سبحانه وجاءت الرسل بتميم ما تم به النعمة وتؤكد المحبة فما عدا ذلك فضول يخاف ضرره ولا يُرجى نفعه ، وقد قام بمراد الله تعالى في ذلك خير القرون فكانوا يحاذرون الاختلاف أشد الحاذرة ويصرون بذلك وما فرط منهم تلافوه أشد التلافي، ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، كما كان من طلحة والزبير وعائشة رضي الله عنهم ولقد صبر من بقي من الصحابة بعد خلافة النبوة على أمراء الجور أشد الصبر وأقبلوا على صلواتهم وصيامهم وجهادهم وسائر القرب يتواصلون بالحق والصبر والمرحمة، ويحاذرون شق عصا المسلمين وكل ما يجر إلى الخلاف وهو المانع والله أعلم لسيوفهم البازرة ، التي استولت على أبطال العرب والاقاسرة والقياسرة ، من أن تجتمع على الملك الجائر حتى يقدم مكانه عادلاً ثم مضوا الأمثل فالأمثل إلى أن ظهرت البدع بسبب التنفير مما سكت الله عنه ورسوله ولو كان لهم من ذلك غير لوقفهم الله على تلك المطالب على لسان رسوله ولم يتركهم يتخبطون لكن النفوس طماعة والدعوى عريضة فتكلم بعض الناس على ما سكت الله عنه وبخشوا في كلام الفلاسفة واختلطوا بهم في أيام الدولتين وناظروهم فاحتاجوا إلى تحرير الجواب على شبههم ورأوا أن تلاوة القرآن التي كانت جواب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجواب اصحابه رضي الله عنهم لا تقنع الخصم ولا تنصفه وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوصي أمراء الاجناد ان يدعوا إلى احدي ثلاث الدخول في الاسلام، أو الجزية، أو الحرب، لم

يجمل منها أن تنتشر اخبارهم وصحفهم وحكمتهم وشبههم وفسفتهم ثم يناظرهم فقراء الصحابة بهذا الاتصاف المولد بمد الصحابة هو الداهية الدهياء ثم حدثت بين المسلمين أنفسهم نوادر كالكلام في القدر ومسألة خلق القرآن والتعرض لما جرى بين الصحابة رضي الله عنهم واتصل بذلك المناظرة عند الملوك والامراء وصارت عصبية ، والدعوى من الجانبين أن ذلك تدين وما هو الا انهم لما تسدوا بطورهم ولم يقفوا على حدم الذي وقفهم الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم عليه ، تركهم الله وشأنهم وابسهم شيئا وأذاق بعضهم بأس بعض فكان خليفة يوافق هؤلاء فيذيق مخالفهم العذاب الاليم ومخالفه الآخر وينقض ما فعله الاول ويشكل هؤلاء ويوطي شأن هؤلاء حتى استحكمت الشر وصار الناس شيئا ، يولد المولود في قوم فلا يسلم من الانصاف شيئا بل يجد شيعة مطبقين على ان مخالفهم ليس على شيء وانما هي فتنة وحادثة في الاسلام ويمدحون نفوسهم بكل خير وينزهونها من كل شر ويعززون الى المخالف فيقض ذلك

تري المتزلة يقولون في كتبهم كان الناس على دين واحد فحدث الجبر في اسرة معاوية والرواية ثم حدث القول بتكليف ما لا يطاق من فلان وقت فلان ثم حدث القول بعدم خلق القرآن ثم حدث كذا من فلان في وقت كذا مع ذكر أسباب وروايات ، فيأتون على جميع مذاهب مخالفهم انها حوادث مجرد ذلك في حكاية الملل والنحل وافراد المقالات لا في كتاب ولا في الف كتاب ثم تنظر كتب التسمية بالسنية يقولون كان الناس جميعا قبل حدوث القدرية على ان الله خالق افعال العباد ليس

للعباد منها الا النسبة السماة بالكسب وجمعون على كذا وكذا بجميع مذاهبهم كل على ما يراه ويعتقده ثم حدث رأي المتزلة بان البدممكن وحدث كذا وكذا الى آخر مذاهب الخالف كذلك ونسي المتزلة نفسها بالمديلة وأهل العدل والتوحيد وأهل الحق والفرقة الناجية والمتزهون لله عن النقص وغير ذلك وتسي خصومها بالخيرة القدرية المحوزة المشبهة الحشوية المرجحة وغير ذلك . والاشاعرة وسلفهم مثل ابن كلاب والحاسبي وغيرهم يسمون نفوسهم بأهل السنة ويسمون المتزلة المتدعة القدرية ونس على هذا

فترى الضيف الرأي والدين بل القوي الذي لم يتدارك الله سبحانه بفضل عناية وتوفيق يرى تطبيق من نشأ فيهم ولقنوه كتبهم وقد ملأت الارض مع شعنها بالتحذير من كتب الخائف والجلوس الى البتدع فكما فطته فريش فيدلاً قلبه ويطرق سمعه ذلك في كل ما كرر النظر والجم التغير قد رأيت ما فعلوا ، ومن يرد الله هدايته يتهم هذا ويبعده عنه لكن قليل ما هم انما تراه يشب على مادب عليه ويشيب على ماشب عليه ، ويمضي عمر المتدين بالقيام والصيام ، وطالب العلم بالتصنيف والكلام على الخلاف والوفاق ، وربما يعرف المذاهب خيرا من اهلها ويعلم انه قد صار بينه وبين من لقنه مراحل ، ثم همه كله مصروف الى ما نشأ عليه يشبه ويمهدم مقابله ، ما نجد خلاف هذا الا في الندرة من النادر من المباحث ولذا تجده يقول في المبحث اذا اراد مخالفة شيمته : الله يحب الانصاف يتبجح بان قد انصف وهذه الكلمة دليل عدم الانصاف وانه لو كان ديدنه الانصاف كما يدعي لما استغرب هذه الندرة التي وقعت لانه طول عمره بزعمه جار على الانصاف

(المترج ١٣٧٧) الانتقال من مذهب الى مذهب. افتتان المحدثين بدعة الكلام ٥٨٩

فهذا مثل من قال فرسي والحمد لله وانما يفعلون ذلك فيما لا ينفع عنهم  
بلى قد تجد احدهم ينتقل من مذهب الى آخر بسبب شيخ أو دولة  
أو غير ذلك من الاسباب الدنيوية والعصبية الطبيعية ولذا تجد ينتقل من  
مذهب برمته الى آخر برمته كما روى ان ابن عبد الحكم اراد مجلس الشافعي  
بمد موته فقيل له قال الشافعي الربيع احق بعجلي فغضب وتغضب لملك  
وصنف كتابا سماه الرد على محمد بن ادريس فيما خالف فيه الكتاب والسنة  
هكذا ذكره ابن السبكي وقد علم الله سبحانه والراسخون في العلم ان الحق  
لم يكن برمته عند فرقة والباطل عند البواقي وان كان كل منهم يدعي ذلك  
بل عند كل قوم حق وباطل لكن الحق والحمد لله لا يخرج عن مجموعهم  
وما الحق كله الا عند من بقي على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم  
ولا بد له من الخطا في اجتهاداته ايضا في المسائل المنفوعة عن الخطا فيها  
لا في المهمات فالمفروض انه وقف على ما وقفه عليه الله ورسوله صلى الله عليه  
 وآله وسلم فلا خطأ، وقل لي من ذا الذي وقف على ما وقف، وتنع بما جاء  
عن الله وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم، ولم يمتدح ويؤثر الاسلاف  
على الكتاب والسنة، ويترك هذا الداء الدوي ويتمسك بالانصاف في  
ما يأتي وينذر، لا والله ما أعرف أحدا في هذه الكتب التي قد طبقت  
البيسطة الا وقد تمخبط وخاط، وتصف لمذهبه وما أنصف، ورد كتاب  
الله تعالى الى عقيدته وحرف،

اما المتكلمون فهو صنيعهم وان كان في تضاعيف كلامهم ما ينفع في  
الجملة وصنعتهم بدعة وما ابتدح قوم بدعة الا وتر كوا سنة ولا يخلص من  
الخير الا الشيطان لئنه الله ولكن هؤلاء المحدثون الذين يزعمون الثبوت

على السنة وينهون عن الكلام قد سرت فيهم المنفعة أكثر منها في غيرهم لأنهم قاعدون في طريق الشريعة والمنفعة والحرب والتمكك والحيات والمقارب والسموم والسباع في الجادة اعظم ضررا منها في ثنيات الطريق مع انهم دائم<sup>(١)</sup> جاء من الخوض في الكلام وصاروا أشد عصبية من المتكلمين لان المتكلمين بنوا أسرم على التفتيش وان لا يلام الطالب على المباحة وايراد الاسئلة واختراع التعليلات بل يمدون ذلك ظرافة وكالا فربما انكشف للتأخر مع تماقب الا نظار تقارب كلام الفريقين ونحو ذلك كما انكشف لاتباع الاشعري بطلان الجبر ثم تشبثوا بالكسب ثم تبين هوارة فصاروا الى مذهب المعتزلة من حيث المعنى كما مضى وليس ثبوت الاختيار يختص بالمعتزلة حتى ينفر عنه انما هو دين الله وحجته فمن حقق من المتأخرين هون ما عظم سلفه ولا نت عريكته، وأما المحدثون فاعا أخذوا شيئا ببول رؤية ثم لم ينفروا كأن ذلك بدعة وصدتوا ولكنه بدعة من أوله الى آخره فالهم دخلوا فيه، كان دخولهم من غير نية لكن دس لهم الشيطان : انتم أهل السنة فمن يذنب عنها ان تركتم هؤلاء، فلام اقتصروا على ما م عليه ولا م بلغوا الى مقاصد القوم ليتمكنوا من الرد عليهم